﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف 169]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طـولُ عهـدِ بني إسرائيل بينهم وبين موسى عليه السلام أدّى إلى قسوةِ قلوبِ أكثرِهِم

ولَمّا كانَ العَذابُ الَّذي وقَعَ التَّأذُّنُ بِسَبَبِهِ [مُمْتَدًّا] إلى يَوْمِ القِيامَةِ، تَسَبَّبَ عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ﴾ أيْ: نَشَأ، ولَمّا كانُوا غَيْرَ مُسْتَغْرِقِينَ لِزَمانِ البُعْدِ، أتى بِالجارِّ فَقالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ أيْ: قَوْمٌ هم أسْوَأُ حالًا مِنهم[1]. والآيَةُ تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِه تعالى في الآية السابقة: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾ إنْ كانَ المُرادُ تَقْطِيعَهُمْ في بِلادِ أعْدائِهِمْ وَإخْراجَهُمْ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ، فَتَكونُ الآيَةُ مُشيرَةً إلَى عَوْدَةِ بَني إسْرائيلَ إلَى بِلادِهِمْ وبناء بَيْتِ المَقْدِسِ بَعْدَ خَرابِهِ. وَإنْ كانَ المُرادُ مِنْ تَقْطِيعِهِمْ في الأرْضِ أُمَمًا تَكْثِيرَهُمْ والامْتِنانَ عَلَيْهِمْ، كانَ قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ تَفْرِيعًا عَلَى جَمِيعِ القِصَصِ المُتَقَدِّمَةِ الَّتي هيَ قِصَصُ أسْلافِهِمْ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَخَلَفَ﴾: الخاء واللّام والفاء أصولٌ ثلاثة: أحدُها: أن يجيءَ شيءٌ بعد شيءٍ يقوم مقامه، والثاني: خلافُ قُدّام، والثالث: التغيُّرُ، ويقولون: هو خَلَفُ صدقٍ من أبيه، وَخِلْفُ سَوءٍ من أبيه، فإذا لم يذكروا صدقًا ولا سَوْءاً قالوا للجيّد: خَلَفٌ، وللرَّديء: خَلْفٌ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 145/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 159/9.
(3) ابن فارس، مقاييس في اللّغة: (خلف).

وأضاف الراغب الأصفهاني: "وخَلَفَ ضدُّ تقدّم وسَلَفَ، والمتأخّرُ لقُصورِ منزلتِهِ يُقال له: خَلْفٌ، ولهذا قيل: الخَلْفُ الرديءُ، والمتأخّرُ لا لقصور منزلته يقال له: خَلْفٌ، قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾"[1].

ويظهر من كلام الرّاغب أنّ (خَلْفٌ) تُقال في كلتا الحالتين: قصور المنزلة أو التّأخّر، وبهذا يظهر أنَّ المُعوَّلَ عليه في التّفريق بينهما هو السياق، فعلى معنى الذَّمّ قال تعالى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: 59]. وبعضُ العلماءِ مَن جعل (الخَلَف) في الصّالحين، و(الخَلْف) في الرديئين واستدلّوا بقول لبيد:

ذَهَبَ الّذينَ يُعاشُ في أكنافِهِمْ *** وبَقيتُ في خَلْفٍ كجِلدِ الأجرَبِ[2]

2) ﴿وَرِثُواْ﴾: الإرْثُ: وهو أن يكون الشيءُ لقوم، ثمّ يصير إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[3]، أو هو: ما يُخَلِّفُهُ المَيِّتُ بعد مَوْتِهِ من مالٍ ونَحْوِهِ، ويُسَمّى أيْضاً: الوِرْثُ، والتُّراثُ، والميراثُ، والمَوروثُ، يُقالُ: وَرِثَ أَباهُ، يَرِثُه، إرْثاً، فهو وريثٌ، أيْ: صارَ إلَيْه مُلْكُهُ بعد مَوْتِهِ، ومِن مَعانيه: أَصْلُ الشَّيْءِ، وبَقيَّتُهُ، والأَمْرُ القَديمُ[4]. والمعنى هنا: أخذوا التَّوراة.

3) ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ العَرْض: خلافُ الطُّولِ، وأصلُه أن يُقال في الأجسام، ثمّ يُستعمل في غيرها، والعَرْضُ خُصّ بالجانب، وعَرَضَ الشيءُ بدا عرضُه. والعَرَضُ: ما لايكون له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلِّمون العَرَضَ لِما لا ثَباتَ لهُ إلّا بالجَوْهَر كاللّون والطّعم، وقيل: الدّنيا عَرَضٌ حاضِرٌ؛ تنبيهًا على أن لا ثباتَ لها[5]. والمراد هنا: ما يَعرِضُ لهم مِنَ الدُّنيا ممّا لايكونُ له ثباتٌ، والأَدْنَى: الأمرُ الأقربُ، وهي الدُّنيا[6].

4) ﴿وَدَرَسُواْ﴾: دَرَسَ الدّارُ معناه بقيَ أثرُها، وبقاءُ الأثرِ يقتضي انْمِحاءَهُ في نفسه، فلذلك فُسِّرَ الدُّروسُ بالانْمِحاءِ، ودَرَسْتُ العلمَ: تناولتُ أثرَه بالحِفْظ، ولَمّا كان تناوُلُ ذلك بمداومةِ القِراءةِ، عبَّرَ عن إدامةِ القِراءةِ بالدَّرسِ[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) لبيد بن أبي ربيعة، ديوان لبيد، ص: 24.
(3) ابن فارس، مقاييس في اللّغة: (ورث).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ورث).
(5) الرّاغب، المفردات: (عرض).
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 659.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (درس).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سـوءُ وراثـةِ التَّوراةِ وجعلُها بضاعَةً للبيع والشِّراء، حسب مقتضياتِ الأغراض والأهواء

فَخَلَفَ من بعد أولئك القومِ الذين قَطَّعناهُم في الأرض أُممًا خَلْفٌ سوءٍ، وَرِثوا كتابَ اللّه وهو التوراة فقرؤوهُ وتعلَّموه، ووَقَفوا على ما فيه من تحليلٍ وتحريمٍ وأمرٍ ونَهْيٍ، ولكنّهم لم يتأثّروا به بل خالَفوا أحكامَه، واستَحَلُّوا محارمَه مع علمهم بها، فَهُم يتهافَتون على حُطام الدنيا ومتاعها، ويتقبّلون المالَ الحرامَ بشراهةِ نفسٍ، ويأكلون السُّحْتَ أكلًا كثيرًا، ويقولون وهم والِغونَ في المعاصي ومُصِرُّونِ على الذُّنوب: إنّ اللّه سيَغفرُ لنا ذُنوبَنا ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال، لأنّنا من نَسْلِ أنبيائِه، فنحنُ شعبُه الذي اصطفاه من سائر البشر، إلى غير ذلك من الأقاويل التي يفترونها على اللّه وهم يعلمون[1].

وإن يأتِ هؤلاء اليهودَ متاعٌ زائلٌ من أنواع الحرام يأخذوه ويستحلُّوه، مصرِّين على ذنوبِهم وتَناوُلِهم الحرامَ، ألَمْ يُؤخَذْ على هؤلاءِ العهودُ بإقامةِ التَّوراةِ والعملِ بما فيها، وألَّا يقولوا على اللّه إلا الحقَّ، وألَّا يكذبوا عليه، وعَلِموا ما في الكتاب فَضَيَّعوه، وترَكوا العملَ به، وخالَفوا عهدَ اللّه إليهم في ذلك؟! والدَّارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتَّقون اللّه، فيمتثلون أوامرَه، ويجتنبون نواهِيَه، أفلا يَعقل هؤلاء الذين يأخذون دنيءَ المكاسب أن ما عند اللّه خيرٌ وأبقى للمُتَّقين؟[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى شناعةِ مَن فَهِمَ كتابَ اللّه ولم يكن عنده فيه إشكال، وكان في أمرِه مُسْتَبصِرًا، ثم يَعمد إلى مخالفةِ أمرِه واتباعِ هواه وشهواتِه؛ فهذا السُّلوك أعظمُ للذَّنْب، وأشدُّ لِلَّوم، وأفظَعُ للعقوبة.

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 425/5 - 426.
(2) نُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 172.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَخَلَفَ﴾ ودلالتُها:

الفاء للعطف والتَّعقيب والتَّرتيب السريع؛ لبيان أنّ أَمْرَ مَن جاء بعدهم لم يَطُلْ كثيرًا في التّحوّل والتبدّل.

فائدةُ مجيءِ القَيْد ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ومعنى ﴿مِنۢ﴾:

(من) ابتدائيّة، والمقصودُ بمن بعدهم أي: مَن جاء مَن أصلابِهم وذُرّياتِهم بعد ذلك، والمقصود: من ذرّية من اعتدَوْا في السّبت، ومن وَقَعتْ عليهم عقوبةُ التّقطيعِ والتّقسيمِ في الأرض، وقد يكون اليهودُ المعاصِرون للنبيّ ﷺ هم المقصودون بذلك[1].

فائدة تقديم شبه الجملة الظرفيّة على الفاعل:

تـقـديـمُ شبهِ الجملة الظرفيّة لـه مسوِّغاتُه اللّفظيّةُ والمعنويّةُ

لتقديمِ شبهِ الجملة الظّرفيّة غَرَضانِ، أحدُهما: يتعلّق بالمعنى؛ فالمقصود هنا أنّ هذه الذّريّة التي تتحدّث عنها الآيةُ هم من أصلابِ أولئك الذين اعتدَوا في السّبت، وليسوا من أصلابِ غيرِهم، ولذلك قال: ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد مُضيِّهم وهلاكِهم جاء مِن نَسْلِهم مَن فَعَل مثلَ فَعْلَتِهم. وفي هذا التّقديم أيضًا تعريضٌ باليهود المعاصِرين للنَّبيّ ﷺ، فقد يكونون هم المقصودين أو أجدادَهم القريبين.

وأمّا الغرضُ الآخَرُ: فهو يتعلَّقُ بالرَّوْنقِ وجَرْسِ الكلام، فقد توسَّطَتْ شبهُ الجملةِ الظرفيّة بين الفعل والفاعل المشتقَّيْن من أصلٍ واحدٍ؛ تجنُّبًا للتَّكرار في قولنا: (فخلف خلفٌ من بعدهم).

نُكتةُ تنكيرِ ﴿خَلْفٌ﴾:

التّحقيرُ والذّمُّ لصفاتِهم، وأنهم ليسوا أهلًا لوراثة الكتاب

التّنكيرُ هنا أفاد معنى التّحقيرِ والذّمِّ لما ذكَرَتْه الآيةُ من صفاتِهم، إذ هؤلاء الخَلْفُ قد خالَفوا أسلافَهم الصالحينَ في اتِّباعِ ما أنزله الله في التوراة، وأخذوا ما يُناسبُ أهواءَهم وشهواتِهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 159/9.

وتَركوا ما يُقَرِّبُهم إلى الله من الطَّاعة والإخلاص. ويَدلُّ التنكيرُ هنا على أنَّهم ليسوا بأهلٍ لوراثةِ الكتابِ، بل حالُهم خلافُ ما يجبُ أن يكونوا عليه من التَّقوى والأمانةِ والنَّزاهةِ والعِفَّةِ.

الموقع النّحويُّ والبيانيُّ لقولِه: ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الـجـمـلـةُ في موقعِ رفعٍ صفةٌ للخَلْف، ودَلَّتْ عـلـى إقـامـة الحُجّةِ عليهم

مقرَّرٌ في علم النّحو أنَّ الجُمل بعد النّكراتِ صِفاتٌ، وموقعُ الجملةِ هنا صفةٌ مرفوعةٌ لـ ﴿خَلْفٌ﴾، وأفادتْ هذه الصِّفةُ أنَّ هذا الخَلْف قد وَصَلَهُمُ البيانُ؛ بأنْ قرؤوا التوراةَ وعَلِمُوها، وصاروا مرجِعًا فيها لأقوامهم ومعاصريهم، فأُقِيمَتْ عليهمُ الحُجّةُ؛ لأنَّ الكتابَ قد انتقلَ إليهم إرْثًا، فالحجَّةُ قائمةٌ عليهم.

بلاغة الاستعارة في التّعبير بالإرْثِ:

شـبّـهـت الآيـة حـمـل الـكـتـاب والـتّـمـكّـن منه بالإرث له

يقول ابن عاشور: يُطلق الإرْثُ مجازًا على مصير شيءٍ إلى حدٍّ بدون عِوَضٍ ولا غَصْبٍ؛ تشبيهًا بإرْثِ الميّت، فقوله: ﴿وَرِثُواْ﴾ مجازٌ في القيام مقامَ الغير، والمعنى: فخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ في إرْثِ الكتاب[1]. والمقصود بقوله: مجاز أنّها استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ شبَّه فيها معرفةَ الخَلْفِ بالوحي بالإرْثِ، بجامعِ التمكُّن في كليهما.

معنى (أل) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

عـهـديَّـة تُـشـير إلى الـتَّـوراة، والـسـيـاقُ في تَبْكيتِهم على إضـاعـةِ ما تحمَّلوه

(أل) عهديَّةٌ تشير إلى التَّوراة؛ لأنّها تتحدَّث عن بني إسرائيل، ولا مانعَ من إرادة الجنس لأنَّ الكُتبَ السماويّةَ يُصدِّق بعضُها بعضًا، فالتّكذيبُ لأحدِها تكذيبٌ لها جميعًا. والصوابُ الأولُ؛ لأنَّ المقامَ تقريرٌ لهم وتبكيتٌ على إضاعةِ ما تحمَّلوه من كتابهم المكلَّفينَ بالعملِ به وتعليمِ الناس وإفتائِهم منه - وهو التوراة -، وجماهيرُ المفسرين على أنَّ الكتاب هنا هو كتابُ موسى[2] ﷺ. كما أنَّ المقامَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8ب/134، و160/9.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 534/10، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 395/15، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 498/3، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 307، والشَّنقيطيّ، العذب النمير: 296/4 - 297.

في الآية الكريمة ليس مقامَ إيمانٍ وكفرٍ بالكتبِ المنزَّلةِ، بل مقامُ تحمُّلٍ واتباعٍ وتبليغٍ.

الموقع النّحويّ والبيانيّ لقوله: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾:

الجملة نَحْويًا صفةٌ أو حالٌ، وبيانيًّا فهي استئنافٌ

من النّاحية النّحْويّة قد تكون صفةً ثانيةً لـ﴿خَلۡفٌ﴾، وقد تكون حالًا من ضميرِ ﴿وَرِثُواْ﴾[1]، ومن النّاحيّة البيانيّة فالجملةُ لم تُعطف على سابقتِها وجاءتْ مُستَأْنَفَةً بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: كيف خالَفوا الكتابَ؟ فجاءَ الجوابُ بأنّهم يُقدِّمونَ متاعَ الدنيا الزائلَ على ما عند اللّه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَأۡخُذُونَ﴾:

أفادَ المضارعُ التجدُّدَ الاستمراريَّ واستحضارَ الصورةِ

التعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَأۡخُذُونَ﴾؛ تفيدُ الحدوثَ والتَّجَدُّدَ؛ لأنَّ هذا الوصْفَ لا يخلو منه زمانٌ من الأزمنة، فَضْلًا عن إرادةِ استحضارِ تلك الصّورةِ القبيحةِ من الإفتاءِ والحُكْمِ بالباطلِ، وتَفَشّي الرِّشوةِ فيهم، وغيرِ ذلك من صورِ انتفاعِهم من مناصِبِهم الدينيةِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بالأخذِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الأخذُ على حقيقتِه إنْ أُريدَ بالعَرَضِ الأدنى الأمورُ المحسوسةُ، أو على المجازِ إنْ أُريدَ الذّنوبُ

يقول ابن عاشور: "إنّ التَّعبير بلفظ (الأخذ) في الآية الكريمة معناه الملابسةُ والاستعمالُ فهو مجاز، أي: يُلابِسونَهُ، ويجوز كونُه حقيقةً، فيَصْدُقُ بالتَّناولِ باليدِ وبغيرِ ذلك، فهو من عُمومِ المجاز"[2].

وعلى المعنى المجازيّ تكون استعارةً تصريحيَّةً بتشبيهِ ملابَستِهم وتعامُلِهم مع العَرَضِ الزائلِ بالأخذِ؛ بجامعِ الانتفاعِ والتملُّكِ له. أو بتشبيهِ ملابَستِهم للذُّنوبِ والمعاصي بالأخذِ؛ بجامعِ وُقوعِها في حسابِهم. وأمّا إذا كان المرادُ بعَرَضِ هذا الأدنى الرِّشا وغيرَها من الأموال المحرَّمةِ فيكون الأخذُ على حقيقتِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 160/9، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 70/3.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 160/9، و161.

فائدةُ التّعبيرِ باسم الإشارةِ للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

التَّعبيرُ باسم الإشارةِ الدَّالِّ على القريبِ فيه إيماءٌ إلى تحقيرِ هذا العَرَضِ الَّذي رَغِبوا فيه[1].

فائدةُ مجيءِ الوصفِ ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾:

الأدنى صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، تَقْديرُهُ: (الشيءُ الأدنى)، والمرادُ به الدّنيا، وهو من الدُّنوِّ للقُرْبِ بالنّسبة إلى الآخرةِ، وهو مُذَكَّرُ دُنيا[2]، وحَذْفُه هنا أفادَ التّحقيرَ له.

نكتةُ العطفِ في ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾؛ لأنَّ كِلا الخَبَرَيْنِ يُوجِبُ الذَّمَّ، واجتماعُهما أشَدُّ في ذلك[3].

دلالةُ التعبيرِ بالمضارعِ:

التّعبيرُ بالمضارع يفيدُ التجدُّدَ الاستمراريَّ لقولهم، ويُفيدُ مع ذلك استحضارَ هذه الصّورةِ البشعةِ لمقولتِهم تلك، ويرى ابن عاشور أنّ القولَ يَحْتَمِل أن يكون باللّسانِ، وهو الظّاهرُ بدلالةِ ما يأتي بعده، ويمكن أن يكون كلامًا نفسيًّا؛ لأنّه فرعٌ عنه، فهم يُعلِّلونَ به أنفسَهم حين يَجيشُ فيها نازعُ النّهي[4].

استحضارُ الصّورةِ البشعةِ لمقولتِهم والتجدُّدِ فيها

نكتةُ مجيءِ حرفِ التَّنْفيسِ في ﴿سَيُغْفَرُ﴾:

السّين: حرفُ تنفيسٍ للاستقبال، وهو مختصٌّ بالمضارع ويُخلِّصُه للاستقبالِ، وليس مُقْتَطَعًا من (سوف) كما يزعمُ بعضُ الكوفيين، ولا مُدَّةُ الاستقبالِ معه أَضْيَقُ منها مع سَوْفَ خِلافًا للبصريين[5]، والمعنى هنا: يقولون بعد أن يأخذوه: سيُغفَرُ

لِفَزعِ ثقةِ بني إسرائيل بأنفسِهم يَظنُّونَ أنّ الله سيَغفِر لهم ذنوبَهم في المستقبل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 161/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 141/6.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 162/9.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 161/9.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 158.

لنا أفعالُنا السيئةُ؛ لِفَرْطِ ثِقَتِهِم بأنفسِهم، وبأنّهم قريبونَ من ربّهم.

سِرُّ بناءِ الفعلِ ﴿سَيُغْفَرُ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

لـلإيـجـازِ، ولـلاهـتـمـامِ بـالـفـعـلِ دونَ النّظَرِ إلى الفاعل

يقول ابن عاشور: "بُنِي فعل (يُغْفَر) في الآية الكريمة على صيغة المجهول؛ لأنَّ الفاعل معروف، وهو الله تعالى، إذ لا يصدر هذا الفعل إلّا عنه ﷻ، وللدَّلالة على أنَّهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوصِ الذَّنْبِ الَّذي أُنْكِرَ عليهم، أو الذي تَلَبَّسوا بهِ حينَ القولِ"[1]. فالحذفُ هنا للإيجازِ، وفيه إشارةٌ أخرى أنّهم ركَّزوا على وقوعِ المغفرةِ لهم بغضِّ النّظرِ عن فاعلِها.

بلاغةُ حذفِ نائبِ الفاعل:

حُـذِفَ نـائـبُ الـفـاعـلِ إيجازًا لأنّـه مـعـلـومٌ مـن الـسّـيـاق، وتقديرُه ذنوبنا

نائبُ الفاعلِ محذوفٌ لِعِلْمِه من السياق، والتقديرُ: (سيُغفر لنا ذلك، أو ذُنوبُنا)؛ لأنَّهم يحسبون أنَّ ذنوبَهم كلَّها مغفورةٌ، ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، أي: يُغفر لنا بدون سببِ المغفرةِ، وهو التَّوبة كما يُعلم مِن السّياق، وهو جَزْمُهم بذلك عَقِبَ ذِكْرِ الذَّنْبِ دون ذكرِ كفّارةٍ أو نحوِها[2].

معنى اللّام في ﴿لَنَا﴾:

تَـحْـتَـمِـلُ الـلّام مـعـانـي متنوّعة يُسَوِّغُها السّياق

اللّامُ في ﴿لَنَا﴾ قد تكون للتَّعديةِ، أو للاستحقاقِ على اعتبار أنّهم يَظنّون استحقاقَهم للمغفرةِ، ويمكن أن يكونوا قَصَدوا بها التّخصيصِ بِظَنِّهم أنَّ المغفرةَ لا تكون إلّا لهم. ويمكن على معنى آخر أن تكون لامَ التّعليل؛ فالمغفرةُ كانت بظنِّهم لأجلِ مَنْفعتِهم، فهذا كلُّه معقولٌ مُتَخيَّلٌ في حَقِّهم.

دَلالةُ الواو في قوله: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ﴾:

الـعـطـف أو الحال

الجملةُ الكريمةُ معطوفةٌ على الَّتي قبلها، وفائدةُ العطفِ هنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 161/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 161/9.

كشفُ حالِهم وتصويرُ موقفِهم لِلقارئِ المتدبِّرِ، ويمكن أن تكونَ الواو حاليّةً من ضميرِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾.

نكتة التّعبير بـ(إن) دون (إذا):

(إنْ) و(إذا) حرفا شَرْط، وإن كان الأوّلُ منهما جازمًا دون الآخر من النّاحية النّحْويّة، أمّا من النّاحية البيانيّة، فإنّنا نأتي بـ(إنْ) للأمرِ المشكوكِ به أو لمن نُنزِّلُه هذه المنزلةَ لأغراضٍ بلاغيّةٍ، بخلافِ (إذا) تمامًا؛ فإنّنا نأتي بها للأمرِ المحَقَّقِ أو لمن ننزِّلُه هذه المنزلةَ خروجًا عن مقتضى الظاهر دون مقتضى الحال.

عـبّر بـ(إنْ) لقلّةِ الوقوعِ أو لكشفِ إصرارِهم على المعصية

والتّعبيرُ بـ(إنْ) هنا قد يكون على ظاهرِه، والمرادُ به إبرازُ نُدْرَةِ وقِلَّةِ تَدافُعِ المنافعِ والمتاعِ نحوَهم مع وجودِ كُفْرِهم. أو يكون خروجًا عن مقتضى الظّاهر بإنزال إتيانِ العَرَضِ المماثلِ لهم منزلةَ نادرِ الوقوعِ؛ للدّلالةِ على أنّه لا ينبغي أن يكون موقفُهم كذلك، بل هو في حُكْمِ نادرِ الوقوعِ لأنّه إصرارٌ على المعصية.

بلاغة التّعبير بالجملة الشرطيّة:

التّعبيرُ بالجُمَلِ الشرطيَّةِ أقوى في تحقيق المعنى من الجُمَلِ غيرِ الشرطيّةِ؛ لأنّ الجملةَ الشرطيّةَ تُرتِّبُ نتيجةً على سببٍ، فجوابُ شرطِها مرهونٌ بتحقُّقِ فعلِه، وهنا عَلَّقتِ الجملةُ الشرطيَّةُ فِعْلَ الأخذِ بإتيانِهمُ العَرَضَ.

الجُمَلُ الشَّرْطيّة أقوى في ربطِ السببِ بالنّتيجة

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَرَضٌ﴾:

من المعلوم أنَّ النَّكِرَةَ في سياقِ الشَّرْطِ تَعُمُّ؛ فهيَ هنا شاملةٌ لكلِّ عَرَضٍ، سَواءٌ كان حسيًّا أو معنويًّا.

نُكتةُ المجازِ في ﴿يَأْتِهِمْ عَرَضٌ﴾:

إسنادُ الإتيانِ إلى العَرَضِ من بابِ الاستعارةِ التَّصريحيّة أو المجازِ العقليّ

يقول ابن عاشور: "واستُعِيرَ إتيانُ العَرَضِ لبذلِه لهم إنْ كان المرادُ بالعَرَضِ المالَ، وقد يُراد به خُطورُ شَهْوَتِه في نفوسِهم إنْ كان المرادُ بالعَرَضِ جميعَ الشهواتِ والمَلاذِّ المحَرَّمةِ، واستعمالُ الإتيانِ

في الذَّواتِ أنسبُ من استعمالِه في خُطورِ الأعراضِ والأمورِ المعنويةِ؛ لِقُرْبِ المشابهةِ في الأوَّلِ دون الثّاني"[1]، فَعَلى الاستعارةِ يكونُ قد شَبَّهَ بَذْلَهم للمنافعِ المادّيّةِ وانتفاعَهُم بها بالإتيانِ بجامعِ التَّمَكُّنِ منها وقُرْبِها. وقد يكونُ في إسنادِ الإتيانِ إلى العَرَضِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ العَرَضَ لا يأتي وإنّما يُؤْتَى به.

الموقعُ البيانيُّ لقولِه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾:

الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ بماذا ردَّ عليهم ربُّهم لمّا قالوا (سَيُغْفَرُ لَنا)؟

يقول ابن عاشور: -الجملة الكريمة- "جوابٌ عن قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ إبطالًا لمضمونِه؛ لأنَّ قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ يتضمَّنُ أنَّهم يزعمونَ أنَّ اللّه وَعَدَهُم بالمغفرةِ على ذلك، والجملةُ معترِضَةٌ في أثناءِ الإخبارِ عن الصّالحين وغيرِهم. والمقصودُ من هذه الجملةِ إعلامُ النَّبي ﷺ ليَحُجَّهُم بها، فَهُمُ المقصودُ بالكلام، كما تشهدُ به قراءةُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب"[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بالميثاق:

شَبَّهَ العهدَ بالميثاقِ لأكثر من جامعٍ بينهما

أصلُ الميثاقِ: حبلٌ أو قَيْدٌ يُشَدُّ به الأسيرُ أو الدّابَّةُ، والميثاقُ عَقْدٌ مُؤَكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ[3]. وهو مستعارٌ في قوله ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لتعاليمِ التَّوراةِ وأحكامِها وعُهودِها عليهم، فَحَذَفَ المستعارَ له وهو المشبَّه وتَرَكَ المستعارَ منه وهو المشبَّهُ به بجامعِ حُصولِ النَّجاةِ بهما، أو بإيصالِهما إلى بَرِّ الأمانِ، أو لِقوَّتِهما وكثرةِ فُروعِهما، أو لإمكانيّةِ نَقْضِهما، وذلك على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التَّبَعيَّةِ.

غرضُ الاستفهامِ ونوعُه:

الاستفهامُ تقريريٌّ توبيخيٌّ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ للتَّقريرِ، والمقصودُ منه التَّوبيخُ، وهذا التَّقريرُ لا يَسَعُهُم إلّا الاعترافُ به؛ لأنَّه صريحُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9.
(3) الرّاغب، المفردات: (وثق).

كتابِهم[1]. ولا شكّ أنَّ الاستفهامَ التّقريريَّ أبلغُ في نفس السَّامع من مجرَّدِ الإخبارِ؛ لأنّ الاستفهام فيه - وإنْ كان ممّا لا يُحتاجُ معه إلى جوابٍ؛ لأنّه معلومٌ مقرَّرٌ - له نكهة الاستفهام تبقى قائمةً فيه؛ لكونه بمنزلةِ المثيرِ الذي يَحتاج إلى استجابة، فيدفعُ هذا الاستفهامُ التّقريريُّ المخاطَبَ فيه إلى إنعامِ النّظرِ والتّفكُّرِ بهذا السؤالِ في داخلِه، والبحثِ عن أجوبةٍ في نفسه له.

سرُّ بناءِ فعلِ الأخذِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جاء بناءُ فعلِ الأخذِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه للإيجازِ للعلمِ به، فالله تعالى هو الذي أخذ عليهم هذا العهدَ، فَضْلًا عن نكتةٍ أخرى في حذفِ الفاعلِ وهي دعوتُهم للانشغالِ بالعهدِ نفسِه وضرورةِ الوفاء به، دون الانشغال عن ذلك بمعرفة مَن أخذه على وجه الخصوص.

بناءُ الفعل للمجهول من باب الإيجاز، ولانشغالِ بالعهدِ نفسِه عن معرفة صاحبه

فائدة تعدية فعل الأخذ بـ(على):

تضمَّن الفعل ﴿يُؤْخَذْ﴾ معنى الفعل (يُفرض) الذي تعدّى بـ(على)، فتكون قيمة التّضمين في قوّة الفعلَيْن: يُؤخذ ويُفرض، فيكون المعنى: أَلَم يُفرض عليهم العهودُ بإقامة التوراة والعمل بما فيها، حتّى كان حقًّا مأخوذًا منهم، إضافةً إلى معنى الاستعلاء في(على) وهي تُشعِر بهذه الفوقيّة من الله تعالى في أخذِهِ ميثاقَ الكتابِ منهم.

تضمَّنَ فعلُ الأخذِ معنى الفَرْضِ فتعدّى بـ(على) التي أعطت معنى الفوقيّة والاستعلاء

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيْهِم﴾:

قدَّمَ شبْهَ الجملةِ على نائب الفاعل ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنَّ مدارَ الحديث والعناية كانت منصبَّةً عليهم في استعراضِ تاريخِهم الطّويل، وما جرى معهم من أحداثٍ وعقوباتٍ.

الحديثُ كان عن بني إسرائيل وعمَّا جرى معهم من أحداث

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9.

نكتةُ إضافةِ الميثاقِ إلى الكتاب:

يقول ابن عاشور: "إضافةُ الميثاقِ إلى الكتاب على معنى (في) أو على معنى اللّام، أي: الميثاق المعروف به، والكتاب هو توراة موسى"[1]. فهو من إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه؛ لأنَّ الميثاقَ هو العهدُ، وهو وصيةُ موسى ﷺ التي بَلَّغَها إليهم عن الله تعالى في مواضع كثيرة: أن لا يشركوا بالله شيئًا، وأن يتبعوا رسولَه محمدًا ﷺ إذا جاءهم.

الميثاق هو العهد، وهو وصية موسى التي بلغها إلى بني إسرائيل عن الله

وفيها إيماءةٌ إلى بني إسرائيل الذين خالَفوا عهدَ الله وكتابَه، وقالوا على الله ما لايَحِقُّ، وتركوا دراسة ما في كتابه من المعاني والأحكام. فالآيةُ دالَّةٌ على أَنَّ بني إسرائيل كانوا مُلزَمين بالامتثالِ لأوامرِ الله والإقرارِ بحقِّ رسولِه، ولا يجوز لهم أن يقولوا على الله إلا الحق.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ والمراد به:

الألفُ واللامُ في الكتاب للعهدِ، أي: الكتابُ المعهودُ، والمرادُ به التَّوراةُ، ولامانعَ من حَمْلِها على الجنسيّةِ لتشملَ الكُتبَ السماويّةَ كلَّها لأنّها يُصدِّقُ بعضُها بعضًا.

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لقولِهِ: ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾:

يرى الآلوسيُّ أنَّ هذه الجملةَ عطفُ بيانٍ للميثاقِ، وقيل: بدلٌ منه، وقيل: إنّه مفعولٌ لأَجْلِه، وقيل: إنّه مُتَعَلِّقٌ بميثاقٍ، بتقديرِ حرف الجرِّ، أي: (بأنْ لا يقولوا)، وجُوِّزَ في(أنْ) أن تكونَ مصدريّةً، وأن تكون مُفَسِّرةً لميثاقٍ؛ لأنّه بمعنى القول، وفي(لا) أن تكون ناهيةً وأن تكون نافيةً[2]. فَفَصْلُ هذه الجملةِ عن سابقتِها هو لِكَمالِ اتِّصالِها بها، أو لِشِبْهِ كمالِ اتّصالِها بها بأن تكونَ جوابًا عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ حولَ ما تضمَّنَه هذا الكتابُ. وفي كلّ الأحوالِ تَضَمَّنتْ هذه الجملةُ إيجازًا

تَحتَمِلُ هذه الجملةُ مواضعَ نَحْويّةً وبيانيّةً متنوِّعةً تُكْسِبُها ثراءً في المعنى وغِنىً في الدّلالة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9 - 163.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 142/6.

بليغًا في الحَذْفِ في الدّلالاتِ المحتَمَلَةِ لكلِّ حرفٍ من حروفِها، وفي كلّ توجيهٍ من توجيهاتِ موقِعِها.

نوعُ القَصْرِ في الجملة وغَرَضُه وطريقتُه:

في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وجاء بأسلوبِ الاستثناءِ بعد النَّفْيِ الذي يأتي في مواضعِ الجَلْجَلةِ، ورَفْعِ الصّوتِ، ومُغالَبَةِ المنكَرِ، أو ما يُنَزَّلُ منزلتَه، وغرضُ هذا القَصْرِ أن يكون وصفُ قولِهم فيه لا في غيرِه.

القَصْرُ هنا من قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفَةِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملةِ هنا مفيدٌ للتّخصيصِ، إذ لا يجوزُ أن يكون قولُهم عن الذّاتِ العليَّةِ على وجه الخصوصِ إلّا حقًّا.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

(أل) هنا استغراقيَّةٌ تَعمُّ قولَ الحقِّ فيما يتعلَّقُ باللّه تعالى؛ من صحةِ الاعتقادِ به في صفاتِه وأفعالِه كلِّها، وما وَصّاهُم به نبيُّه ﷺ من أصولٍ وتشريعاتٍ وأحكامٍ وآدابٍ وتعاملاتٍ وأخلاقٍ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ على ما تَقدَّمَها:

في قولِه تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ عَطَفَ الفعلَ الماضي ﴿وَدَرَسُواْ﴾ على الفعلِ المضارِعِ ﴿يُؤۡخَذۡ﴾؛ لما في الفعلِ المضارعِ ﴿يُؤۡخَذۡ﴾ من معنى المضِيِّ؛ لأنَّ (لم) قَلَبتْ معناه ماضيًا. والمعنى: أنَّهم قد أُخِذَ عليهمُ العهودُ بأن لا يقولوا على اللّه إلَّا الحقَّ، وهُمْ عالِمونَ بذلكَ الميثاقِ المؤكَّدِ؛ لأنهم دَرَسوا ما في الكتابِ؛ فَبِمَجموعِ الأَمرَيْنِ قامَتْ عليهمُ الحُجَّةُ[1]. ولا إشْكالَ هنا في عَطْفِ الخَبَريَّةِ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ على الإنْشائيّةِ ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ﴾؛ لأنّ مضمونَ الإنشائيّةِ هو الإخبارُ، فهي إنشاءٌ لفظًا خبرٌ معنًى.

عطفُ الماضَويّةِ على المضارِعيَّةِ لاشتراكِهما في معنى المضيّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 163/9.

وقيلَ: إنّ قولَه ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ حاليَّةٌ من ضميرِ ﴿يَقُولُواْ﴾، فالواو للحالِ على معنى: أُخِذَ عَليهِمُ الميثاقُ بأن لا يقولوا على اللّهِ إلّا الحقَّ الذي تَضَمَّنَه كتابُهم في حالِ دِراسَتِهم ما فيه وتذكُّرِهم له، وفيهِ بُعْدٌ[1].

غرضُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾:

لم يكن تركُهُمْ للعملِ بالكتابِ عن جهلٍ؛ فقد قرؤوا ما فيه وعَلِمُوهُ، فَذَنْبُهم أشدُّ ممن لم يَدرسْ ويعلمْ

المقصودُ من هذا التّعبيرِ المبالغةُ في إقامةِ الحُجّةِ عليهم، فالمعنى: أنّهم قد أُخِذَ عليهمُ الميثاقُ بأن لا يقولوا على اللّه إلّا الحقّ، وهم يَعرفون ذلك الميثاقَ؛ لأنّهم دَرَسوا ما في الكتاب؛ إذ لم يكن تركُهُم للعملِ بالكتابِ عن جهلٍ، بل كان على عِلْمٍ، فقد قرؤوا ما فيه وعَلِمُوهُ، فَذَنْبُهُمْ أشدُّ ممن لم يَدرسْ ويَعلمْ، فبِمَجْموعِ الأمريْنِ قامَتْ عليهمُ الحُجّةُ[2].

معنى ﴿مَا﴾ في قولِه ﴿مَا فِيهِۗ﴾:

﴿مَا﴾ هنا موصولةٌ، والمعنى: دَرَسوا الذي فيه، فشِبْهُ الجملةِ هي صِلتُه أو مُتَعَلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: كائنٌ أو موجودٌ هو صلتُه، والاسمُ الموصولُ يعودُ على أحكامِ الكتابِ وعهودِه.

الموقعُ البيانيُّ لجملةِ ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾:

بيانُ حالِهم من ضميرِ (يَأْخُذونَ) للتّعريضِ بهم بأنّهم نُزِّلوا في اختيارِهمُ الدّنيا بمنزلةِ من لا عقولَ لهم

الجملةُ الكريمةُ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ حاليَّةٌ من ضميرِ يأخذونَ، أي: يأخذون ذلك ويَكذِبونَ على اللّه ويُصِرُّونَ على الذَّنْب، ويَنبِذونَ ميثاقَ الكتابِ على علم، في حال أنَّ الدّار الآخرَة خيرٌ ممّا تَعَجلّوه تَعَجُّلوه. وفي جعلِ الجُملةِ في موضعِ الحالِ تعريضٌ بأنَّهم يعلمون ذلك أيضًا، فَهُمْ قد قدَّموا عليه عَرَضَ الدُّنيا قَصْدًا، وليس ذلك عن غفلةٍ صادَفَتْهم فَحَرَمَتْهم من خيرِ الآخرةِ، بل هم قد حَرَموا أنفسَهم، وقرينةُ ذلك قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بالاستفهامِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 143/6.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 163/9.

الإنكاريِّ التوبيخِيِّ، وقد نُزِّلوا في اختيارِهم عَرَضَ الحياةِ الدّنيا بمنزلةِ من لا عقولَ لهم[1].

نكتةُ وصفِ الدَّارِ بالآخِرَةِ:

غرضُ وصفِ الدّار هنا بأنّها الآخرةُ، هو التّعريضُ بدارِ الدّنيا التي انْشَغَلوا بعَرَضِها، والذي سَوَّغَ وَصْفَها بالآخرةِ هنا أنّه قالَ في حقِّ دارِ الدّنيا ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾. وفيه تبكيتٌ لبني إسرائيلَ بعد أَخْذِ اللّهِ العهودَ والمواثيقَ عليهم ألَّا يقولوا على اللّه إلَّا الحقَّ دونَ تحريفٍ أو تبديلٍ، وهم أيضًا قد عَلِموا ما في الكتاب من الأحكامِ والشرائعِ، فمَنْ هذه صفتُه ينبغي أن يكون ممَّن يرجو بدراستِه وعلمِه وعملِه وتعليمِه وأحكامِه وجْهَ اللّه والدارَ الآخرةَ، ولا يكون ممَّن ضَيَّعَ عهدَ اللّه وتركَ العملَ به، وخالَفَ ما عَهِدَ اللّهُ إليه في ذلك.

التّعريضُ بالدّنيا التي ركَضَ بنو إسرائيل إليها، وتبكيتٌ لهم بعُدولِهم عن الصِّفَةِ التي ينبغي أن يكونوا عليها

سِرُّ تنكيرِ ﴿خَيْرٌ﴾ وموقعُها النَّحْويُّ:

﴿خَيْرٌ﴾ خبرٌ لـ﴿وَٱلدَّارُ﴾ وتنكيرُها يُفيدُ التّعظيمَ، وقد يُفيدُ التّنويعَ على أنّها ليستْ من جنسِ ما يُدرِكونَ كُنْهَهُ ونوعَه.

بلاغةُ الكنايةِ ودلالتُها:

يقول ابن عاشور: "وفي قوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ كنايةٌ عَن كَونِهم خَسِروا خيرَ الآخرةِ بأخذِهم عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ؛ لأنَّ كَونَ الدّارِ الآخرةِ خَيرًا ممّا أخَذوه، يستلزِمُ أن يكونَ ما أخَذوه قد أفات عليهم خَيرَ الآخرةِ.

دَلَّتِ الكِنايةُ على أنّهم خَسِروا الآخرةَ، وعلى أنَّهم ليسُوا من المتَّقينَ

وفي جَعْلِ الآخرةِ خيرًا للمُتَّقينَ كنايةٌ عن كَونِ الَّذين أخَذوا عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ لم يكونوا مِن المتَّقينَ؛ لأنَّ الكنايةَ عَن خُسرانِهم خَيْرَ الآخرةِ، مع إثباتِ كَونِ خَيرِ الآخرةِ للمُتَّقينَ، تَسْتلزِمُ أنَّ الذينَ أضاعوا خيرَ الآخرةِ لَيْسُوا من المتَّقينَ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 163/9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 163/9 - 164.

معنى اللّام في ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

اللامُ في قوله: ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ للاسْتِحقاقِ على اعتبارِ أنَّ المتّقين استَحَقُّوا هذا الإكرامَ، ولامانعَ من حمْلِها على معنى الاختصاصِ؛ لأنّ هذه الخيريّةَ لهم لا تتعدّاهُم لغيرِهِم.

اللّامُ للاستحقاقِ أو التّخصيصِ

غرضُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا يُفيدُ التّعظيمَ.

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ فعليّةً:

التّعبيرُ بالجملةِ الفعليّةِ أفادَ هنا التجدُّدَ الاستمراريَّ في الدّعوة للتّقوى، فَضْلًا عن إفادةِ استحضارِ صورةِ مَن يتوقّى في أقوالِهِ وأفعالِهِ للقارئِ الكريم.

التّجدُّدُ الاستمراريُّ واستحضارُ صورةِ المتّقين

بلاغةُ حذفِ مفعولَي ﴿يَتَّقُونَۚ﴾ و﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

الحذفُ هنا للتّعميم بإنزالِ الفعلِ المتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازمِ؛ ليشملَ كلَّ ما يُمكِنُ اتِّقاؤُهُ من محارمِ اللّه، أو غضبِهِ أو عذابِهِ، والتّقديرُ مع ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ أي: شيئًا على الإطلاقِ.

الحذفُ هنا للتّعميم

موقعُ الجملةِ الاستفهاميّةِ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

جاء ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ مَفْصولًا عمّا تقدَّمَه؛ لأنَّهُ استفهامٌ، وما تَقَدَّمَهُ من قولِه ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾ خبرٌ، فالفَصْلُ لكمالِ الانقطاعِ بينهما لاختلافِ الخبريّةِ والإنْشائيَّة، فلا يَجوزُ عَطْفُ الجملةِ الإنشائيّةِ على الخبريّةِ أو العكسُ إلّا إذا أُوِّلَتْ إحداهُما على معنى الأُخرى.

الجملةُ غيرُ معطوفةٍ على ما تَقَدَّمَها لكمالِ الانقطاعِ لاختلافِ الخبريّةِ والإنشائيّةِ

نوعُ الاستفهامِ وغَرَضُه البيانيُّ:

الاستفهامُ إنكاريٌّ تَوبيخيٌّ لبني إسرائيلَ، وتوبيخٌ لهم على عدمِ التَّفكيرِ في عَواقبِ أمورِهِم. والقصْدُ: أَفَلا يكونُ لكمْ عُقولٌ تُوازِنُ بينَ ما يَنبغي إيثارُهُ، وما يَنبغي الإيثارُ عليهِ، وما هوَ أَوْلى بالسَّعي إليه، والتَّقديمِ له على غيرِه، فَخاصِّيَّةُ العقلِ النَّظَرُ في العَواقبِ[1].

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 172.

نكتةُ حذفِ الجملةِ المقدَّرَةِ بين همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ:

حـذفُ الجملةِ المـقـدَّرَةِ هنا كـان لـلإيـجـازِ، ولِتَذهَبَ النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ

الفاءُ هنا عاطِفةٌ مُعقِّبةٌ، وأُخِّرتْ عن همزةِ الاستفهامِ؛ ليسَ فقطْ لأنَّ همزةَ الاستفهامِ لها الصَّدارَةُ، وإنّما هو - كما يُقرِّرونَ - لوجودِ جملةٍ محذوفةٍ بينها وبينَ همزةِ الاستفهامِ، تُقَدَّرُ بحسبِ السياقِ، والمعنى هنا: أَجَهِلْتُم فلا تَعْقِلون؟ أو: أَبَقِيتُم على ضَلالاتِكُم فَلا تَعقِلون؟ ومِن هنا تَظهرُ بلاغةُ الحذفِ بينَ همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ الذي يَليها.

فائدةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

الالـتـفـاتُ مـن الـغَـيْـبـةِ إلى الـخِـطـابِ تَـفْـريـعٌ لليهودِ المعاصِرينَ للنَّبيِّ ﷺ

الالتفات في هذه الكلمةِ بحسبِ أحدِ وَجْهَي القراءةِ المتواترةِ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ جاء خِطاباً لبني إسرائيلَ المعاصرينَ لنزولِ القرآن فَمَن بعدَهم، مما يُثيرُ فنّ التَّنويعِ في العبارةِ لفتًا لانْتباهِ المتلَقّي، وبَعثًا لنشاطِه، ويفيد كذلك الإيجاز في التَّعبيرِ، لأنّ المقام مقامُ أن يقول: (وأنتم يا بني إسرائيلَ ما زِلْتُم على طريقةِ أَسْلافِكُمْ، أَفَلا تَعْقِلونَ؟) فاقْتَصَرَ النَّصُّ على: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ مُسْتَغْنيًا بأُسْلوبِ الالتفاتِ، للدَّلالة على ما يُمْكِن فَهْمُه ذِهْناً، إذِ اعتَبَرَهُمُ النَّصُّ داخِلينَ في عُمومِ خِطابِ الغائبينَ السّالِفينَ، إذْ هُمْ موافقونَ على ما كانوا يفعلون، أو يفعلون مثلَهم.

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

ضـرورةُ تجـدُّدِ الـتـعـقُّـلِ لديهم، وحَصْرِ تـصـرُّفـاتِـهـم وأقـوالِـهـم على مـا يُـرضي اللـهَ ويوافقُ كتابَهم

الفعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾: مشتقٌّ من (عَقَل)، والمعنى المحوريُّ الذي تدورُ حولَه هذه المادّةُ اللُّغويَّةُ هو: حَوْزٌ في جوفٍ حَصينٍ حَبْسًا، بحيثُ لا يَذهَبُ أو يَضيعُ - كالدُّرّة في صَدَفِها، وكما يَحوزُ الحِصنُ والملجأُ مَن يَحتمي به[1].

فالمعاني اللّغويّةُ للعقلِ تدورُ حولَ الحَجْرِ والمنْعِ للشَّيءِ الثمينِ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقل).

ومجيءُ هذا الفعلِ بصيغةِ المضارَعةِ هنا في سياقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ؛ لِيَدُلَّ على ضرورةِ تجدُّدِ التَّعقُّلِ لديهم، وحَصْرِ تصرُّفاتِهم وأقوالِهم على ما يُرضي اللّه ويوافقُ كتابَهم.

بلاغةُ توجيهِ القراءتين في ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

تتكاملُ القراءتانِ المتواترتانِ في توجيهِ التّوبيخِ والإنكارِ للسابقينَ والمعاصِرينَ من بني إسرائيل على أفعالهم

قرأَ نافعٌ، وابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصم، ويعقوبُ، وأبو جعفر بتاءِ الخِطاب، وقرأَ بقيّةُ القُرّاءِ العشرةِ بياءِ الغَيْبة، فيكونُ توبيخُهم تعريضًا[1]. وقد تقدّم توجيهُ الالتفاتِ على قراءةِ تاءِ الخطابِ في أنّه يمكن أن يكونَ توبيخًا للسابقينَ منهم، أو المعاصِرينَ للنَّبيّ ﷺ؛ ليكونَ أوقَعَ في توجيهِ التَّوبيخِ إليهم مُواجهةً. أمّا على قراءةِ ياءِ الغَيْبةِ فيكونُ التّوبيخُ للسابقين منهم، وبذلكَ تتساوَقُ جميعُ الضمائرِ في الآية في الحديثِ عنهم.

بلاغةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في الحديثِ عن صفاتِ (الخَلْف):

جاء في هذه السورة قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: 169]، وجاءَ في سورةِ مريمَ قولُهُ تعالى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: 59].

فَخُصَّتْ كلُّ آيةٍ منهما بوصفٍ دون الأخرى: فآيةُ الأعرافِ تتحدَّثُ عن خَلْفٍ قد وَرِثوا الكتابَ عن الصّالحين، لكنَّهم انْشَغَلوا باللّذاتِ العاجلةِ عن الآجلةِ، وأَصَرُّوا على معاصيهم، فناسَبَهُ قوله: ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

أمّا آيةُ مريم فَيَسْبِقُها قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 256، وابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 257/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 163/9.

وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58]؛ فلما كانتْ أبرزُ صفاتِ هؤلاء: اجتباءَ الله لهم للرسالة والنبُوَّة، وهدايتَهم لطريقِهِ المستقيم، والخشوعَ والخضوعَ لله بالمحافظةِ على الصَّلاةِ وإدامةِ السَّجودِ له، وكثرةَ البكاءِ من أثَرِ سماعِ آياتِ الله الدالَّةِ على شدَّةِ الخوفِ من الله الموجبةِ لعدمِ اتباعِ الشهواتِ - ناسَبَهُ وصفُ الخَلْفِ بأنهم: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: 59].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَرَض والمتاع:

العَرَضُ كما تقدّم في شرح المفردات هو الأمرُ الَّذي يزولُ ولا يَدومُ؛ ويُراد به المال، ويُراد به أيضًا ما يَعرِضُ للمرء مِن الشَّهواتِ والمنافعِ. والمتاعُ النَّفعُ الَّذي تتعجَّلُ به اللَّذَّةُ؛ وذلك إمّا لوجود اللَّذَّة، وإمّا بما يكون معه اللَّذَّة[1]. فالعَرَضُ هو وسيلةٌ لتحصيلِ المتاعِ.

العَرَض هو وسيلةٌ لتحصيلِ المتاع

الأدنى والأقرب:

فرَّقَ بينهما أبو هلالٍ العَسْكريُّ بقوله: "إنَّ الدُّنُوَّ لا يكونُ إلّا في المسافةِ بين شيئَيْنِ، تقول: دارُهُ دانيةٌ ومزارُهُ دانٍ، والقُرْبُ عامٌّ في ذلك وفي غيرِه، تقول: قلوبُنا تتقارَبُ، ولا تقولُ تَتَدانى، وتقول: هو قريبٌ بقلْبِه، ولا يُقال دانٍ بقَلْبِه إلّا على بُعْدٍ"[2].

كلّ دنوٍّ قُرْبٌ؛ لأنّ القُرْبَ أعمُّ من الدنوِّ

القراءة والدراسة:

فَرَّقَ بينهما ابنُ عاشور بأنَّ الدِّراسةَ قراءةٌ بإعادةٍ وتَكرير؛ لأنَّ مادَّة (دَرَسَ) في كلامِ العربِ تَحوُم حولَ معاني التَّأثُّرِ من تَكرُّرِ عملٍ يُعمل في أمثاله، فمنه قولُهم: دَرَستِ الرّيحُ رسمَ الدّارِ إذا عَفَتْهُ وأَبْلَتْهُ، فهو دارِسٌ، يُقال: منزلٌ دارِسٌ، والطَّريقُ الدّارِسُ

الدراسةُ أخصُّ من القراءةِ؛ لأنّها قراءةٌ بإعادةٍ وتَكرارٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 222.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغوية، ص: 343.

العافي الَّذي لا يَتَبيَّن. وثَوْبٌ دارِسٌ: خَلَقٌ، وقالوا: دَرَسَ الكتابَ إذا قرأَهُ بِتَمَهُّلٍ لحِفْظِه، أو للتَّدبُّرِ - فَعُلِم أنَّ الدِّراسةَ أخصُّ من القراءةِ. ومادة (دَرَسَ) تستلزِمُ التَّمَكُّنَ من المفعولِ؛ فلذلك صارَ: دَرَسَ الكتابَ مجازًا في فَهْمِهِ وإتقانِه[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 295/3.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»